

محمد الأشهب | Mohamed Lachhab*
ترجمة: فتحي المسكيني | Translated by Fethi Meskini**

مراجعة كتاب: نظرية الفعل التواصلي (المجلدان 1-2) ليورغن هابرماس

Book Review

The Theory of Communicative Action in Two Volumes by Jürgen Habermas

نظرية الفعل التواصلي.	عنوان الكتاب:
يورغن هابرماس.	المؤلف:
فتحي المسكيني.	المترجم:
عقلانية الفعل والعقلانية الاجتماعية.	عنوان المجلد الأول:
في نقد العقل الوظيفي.	عنوان المجلد الثاني:
الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.	الناشر:
2020.	سنة النشر:
624 صفحة.	عدد صفحات المجلد الأول:
663 صفحة.	عدد صفحات المجلد الثاني:

* أستاذ الفلسفة المعاصرة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.

Associate Professor of Contemporary Philosophy at Ibn Zohr University, Agadir, Morocco.

chercheurhabermas2001@yahoo.fr

** أستاذ الفلسفة المعاصرة، جامعة تونس.

Associate Professor of Contemporary Philosophy at the University of Tunis.

mknfth@yahoo.fr

مؤلفاته منذ ما يزيد على عقدين من الزمن. ونرى أنّ هذه القراءة التركيبية ربما ستنبه القارئ العربي لأهمية الكتاب على نحو أفضل من قراءة أخرى تعرض أفكار المؤلف بحسب كل فصل. ولتحقيق ذلك سنتعرض لموقع نظرية الفعل التواصلية في برنامج هابرماس الإبستمولوجي؛ ليتوقف القارئ على أهمية الكتاب الذي ارتبط باسم "النظرية النقدية" التي طورها هابرماس، في مختلف المجالات العلمية والفلسفية، وليكون أيضًا على بينة من منزلة هذا الكتاب في مشروعه الفلسفي العام قبل فترة الثمانينيات وما بعدها. وستقف، أولاً، على دواعي ترجمة هذا الكتاب وأهميته في السياق العربي. ثمّ نصوغ، ثانياً، تولىً متعلقاً بأهم المشكلات الفلسفية التي تناولها، وهي مشكلات تتطلب من القارئ العودة إلى الكتاب لمعرفة الخطة المنهجية والحجاجية التي سلكها مؤلفه، لإبراز أهمية البردايم التواصلية الذي ينتصر له، استناداً إلى مكتسبات العلوم الاجتماعية مع رواد علم الاجتماع الحديث والمنعطف اللغوي. ثمّ نقدّم، ثالثاً، بعض الملاحظات عن الترجمة. وفي إثر ذلك، نختم هذه القراءة ببعض الخلاصات.

أولاً: موقع نظرية الفعل التواصلية في برنامج هابرماس الإبستمولوجي

يُمثّل هابرماس، أحد الوجوه الفلسفية البارزة في تاريخ الفلسفة الغربية المعاصرة، وهو فيلسوف تميز مشروعه الفلسفي، بإعادة قراءة تاريخ الفلسفة الغربية، انطلاقاً من العودة إلى إيمانويل كانط (Immanuel Kant 1724-1804)، لتحيين هذا التاريخ، وإبراز راهنية الفكر النقدي التنويري، على اعتبار أنّ مشروع الحداثة بالنسبة إليه لم

يستلزم تقديم كتاب **نظرية الفعل التواصلية** *Theorie des kommunikativen Handelns* (1981)، للفيلسوف الألماني يورغن هابرماس Jürgen Habermas، الصادر في مجلدين، عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات⁽¹⁾، وضعه في السياق الفلسفي الذي جاء فيه لكونه كتاباً مفصلياً في مسار هابرماس الفلسفي. وقد بذل المترجم فتحي المسكيني جهداً كبيراً للإمساك بالقضايا الأساسية التي تناولها الكتاب الذي اجتهد هابرماس فيه منهجياً بطريقة أبان فيها عن نفس حجائي للمرافعة، من أجل تطوير "نظرية الفعل التواصلية"، في مطلع ثمانينيات القرن العشرين، وذلك من خلال اعتماد مقارنة متعددة المباحث، تجمع بين تخصصات مختلفة من حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ويكفي القول إن الكتاب نشرت حوله، بعد صدوره، أكثر من 900 من الدراسات والمتابعات النقدية، وفي ذلك دلالة على مدى النقاش الذي أثاره بين مناصري النظرية النقدية ونقادها. ولهذا، سنقدم للقارئ فكرةً عامة، عن هذا الكتاب، استناداً إلى المتن الفلسفي الذي قدّمه هابرماس، مستفيدين من التراكم المعرفي الذي اكتسبناه من

(1) صدر عن سلسلة "ترجمان" في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات كتاب **نظرية الفعل التواصلية** في مجلدين؛ الأول ذو عنوان فرعي: **عقلانية الفعل والعقلانية الاجتماعية**، أما الثاني فعنوانه: **في نقد العقل الوظيفي**، وهو ترجمة كاملة عن الألمانية، بالاستعانة بالترجمتين الفرنسية والإنكليزية. وقد أنجز المترجم فتحي المسكيني، في مدة تجاوزت أربع سنوات، نظراً إلى صعوبة المهمة، ذلك أنّ نقل كتاب من حجم نظرية الفعل التواصلية إلى اللسان العربي يتطلب جهداً لغوياً، وإلماماً معرفياً بالمتن الفلسفي لهابرماس والنظرية النقدية، من جهة، والنظريات الفلسفية والسوسولوجية واللسانية التي يحيل إليها هابرماس في بنائه الحجائي من جهة ثانية. وأتوجه بالشكر الجزيل للزميل رشيد بن بيه، على الملاحظات القيمة التي تفضل بها، وعلى مراجعته لهذه القراءة من حيث الشكل والمضمون.

لمنطلقات الفلسفة الماركسية التي تشكّل الدعامة الأساس للنظرية النقدية؛ إذ نلاحظ اتساع الهوية بينه وبين المدرسة النقدية، وهذا ما بلوره في مقاله "إعادة بناء المادية التاريخية" "Towards a Reconstruction of Historical Materialism" التي قلب فيها الماركسية رأساً على عقب، ونادى بضرورة الانتقال، من بردايم الصراع Conflict، إلى بردايم التواصل Communication⁽⁴⁾ الذي يقوم على "أخلاقيات المناقشة"⁽⁵⁾ في أفق بناء مجتمع ديمقراطي، يعمّه الحوار والتواصل. وقد استفاد هابرماس في هذه الفترة، من التداوليات الكلية والنظرية الحجاجية⁽⁶⁾.

جعلت المقاربة التي اتبعها هابرماس، في نظريته التواصلية الداعية إلى تأسيس عقل تواصلي بديل من "العقل الأداتي"، أو ما سماه "العقلانية التواصلية" Communicative Rationality، منه ممثلاً شرعياً لجيل مدرسة فرانكفورت الثاني. إنّه، بالنظر إلى حسه الفلسفي النقدي، يختلف في فلسفته النقدية عن مارتن هايدغر Martin Heidegger (1889-1976)، وفريدريش نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900)، والفلاسفة الفرنسيين، الذين يمثلون جيل "فلسفة الاختلاف"، وهذا ما برز في مراجعته النقدية لهؤلاء في كتابه الخطاب الفلسفي للحدث (1985)، الذي وجه

(4) محمد الأشهب، "هابرماس وإعادة بناء المادية التاريخية: من براديجم الإنتاج إلى براديجم التواصل"، مجلة الأزمنة الحديثة، العدد 17-18 (2020)، ص 67-99.

(5) ينظر: محمد الأشهب، أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لهابرماس (عمّان: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2013).

(6) ينظر مجمل المؤلفات التي نشرت في هذا الكتاب بوصفها أبحاثاً مهدت لنظرية الفعل التواصلي:

Jürgen Habermas, *Vorstudien und Ergänzungen zur Theorie des kommunikativen Handelns*, 3rd ed. (Berlin: Suhrkamp Verlag, 1995).

يكتمل⁽²⁾. يضاف إلى ذلك أنه مشروع يقوم على مقدمات ومصادر معيارية خاصة به⁽³⁾. وفي هذا السياق، سيعمل هابرماس على تطوير مشروع "مدرسة فرانكفورت"، على الرغم من الاختلافات الجذرية بينه وبين مشروع الجيل الأول الذي يمثله ماكس هوركهايمر Max Horkheimer (1895-1973)، وتيودور أدورنو Theodor Adorno (1903-1969)، وهربرت ماركوزه Herbert Marcuse (1898-1979)، وغيرهم؛ فيما يرتبط خاصةً بنقدهم الجذري للعقل الأنثوري، وفيما يرتبط كذلك بتحميله مسؤولية الكوارث التي لحقت بالمجتمع الأوروبي، بعد عصر التنوير، مثل الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، والحرب العالمية الثانية (1939-1945)، و"ظهور الأنظمة الشمولية" ... إلخ.

لم يتفق هابرماس مع الانتقادات الجذرية للعقل، رغم اعترافه بوجود جوانب سلبية ناتجة من العقل الأداتي. ولم يمنعه انتقاده لأسلافه، ونخص بالذكر منهم هوركهايمر، من تبني أفكار النظرية النقدية، ولا سيما في كتاباته المبكرة، مثل: التحول البنيوي للفضاء العمومي (1962)، والعلم والتقنية كـ "إيديولوجيا" (1968)، والمعرفة والمصلحة (1968)، وأزمة الشرعية (1973)، وغيرها. وفي مطلع سبعينيات القرن العشرين ووسطها، وبالنظر إلى انفتاح هابرماس على الدراسات السياسية، وفلسفة اللغة، وعلم النفس التكويني Psychology Formative، أجرى مراجعة نقدية

(2) يورغن هابرماس، "الحدث - مشروع لم يكتمل"، ترجمة فتحي المسكيني، تبين، مج 1، العدد 1 (صيف 2012)، ص 183-196.

(3) Jürgen Habermas, *Auch eine Geschichte der Philosophie: Band 1: Die okzidentale Konstellation von Glauben und Wissen* (Berlin: Suhrkamp, 1985), pp. 390-425.

وسياسية؛ هو يُصِرُّ على أنها نظرية نقدية للمجتمع. وبناءً على ذلك، كان يهدف من خلال محاكمته للعقل الغربي، في نظريته للحدث والعقلانية الأداتية، وإدخاله "نظرية التواصل"، إلى وضع قواعد لنظرية فلسفية واجتماعية تسمح بإمكانية التفكير في الظواهر المرضية للمجتمع الحديث؛ من أجل تقويم هذا الاعوجاج، أو "التواصل المشوّه"⁽⁸⁾ الذي يحول دون بناء مجتمع حديثي، ديمقراطي، يقوم على أساس التفاهم والتواصل.

لقد تولد لدى هابرماس، هذا الهاجس المتعلق بإشكالية التواصل من تفاعله مع المناقشات السياسية والفكرية داخل الفضاء العمومي الحديث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، ومن الدوافع الشخصية لهذا الاهتمام، كما فصلها في المحاضرة التي قدمها في طوكيو⁽⁹⁾. وكما هو معروف، يُعد هابرماس من المناهضين للتجربة النازية. ففي كتاباته الأولى، وجه انتقادات قوية لهايدغر بخصوص ما عرف بـ "حالة هايدغر" في الفلسفة الألمانية. واستمر في مناهضته لفكر المحافظين في أعماله المتأخرة.

سيجد متبّع مسيرته الفلسفية أنّ هذا الأسلوب ظلّ راسخاً، في مشروعه الفلسفي وكتاباته السياسية إلى يومنا هذا. وتُعد كتاباته في أواسط الثمانينيات مرحلة مهمة في هذا السياق؛ وذلك حين كتب الخطاب الفلسفي للحدث، والمقالات التي ساهمت، في ظهور ما سُمي "سجال المؤرخين" Historikersstreit، وهو سجال داربينه وبين المؤرخين الألمان المحافظين الذين أرادوا التطبيع مع التاريخ الألماني النازي.

فيه انتقادات لاذعة إلى ميشيل فوكو Michel Foucault (1926-1984)، وجورج باطاي Georges Bataille (1879-1962)، وجاك دريدا Jacques Derrida (1930-2004)، وجان فرانسوا ليوتار Jean-François Lyotard (1924-1998). ويُعد هذا الكتاب، الذي منح هابرماس شهرة منقطعة النظير في الأوساط الفلسفية الفرنسية، تطويراً لأسس نظرية الفعل التواصلية، انطلاقاً من تاريخ الفلسفة الغربية المعاصرة، وتحديدًا بدءاً من فريدريش هيغل Friedrich Hegel (1770-1831)، وصولاً إلى دريدا. وهي الأسس التي سبق لهابرماس أن تناولها في كتابه نظرية الفعل التواصلية. وفي هذا الكتاب، ظهر هابرماس قارئاً متمرساً بالنظريات السوسيولوجية الكبرى لدى ماكس فيبر Max Weber (1864-1920)، وتالكوت بارسونز Talcott Parsons (1902-1979)، وجورج هربرت ميد George Herbert Mead (1863-1931)⁽⁷⁾، وقد طوّر المفاهيم الأساسية لنظريته، مثل: "الإجماع"، و"الاتفاق"، و"التفاهم"، و"الفعل التواصلية"، و"النسق"، و"العالم المعيش"، وهي مفاهيم سبق أن أشار إليها في كتاباته الصادرة قبل فترة ثمانينيات القرن العشرين، مثل: العلم والتقنية كـ "إيديولوجيا" ومنطق العلوم الاجتماعية.

وفضلاً عن ذلك، لم يتوقف هابرماس في تصوره النقدي على هذه المفاهيم التي تشكّل النواة الصلبة لنظريته التواصلية فحسب، لأن نظريته ليست نظرية لغوية، بل لها امتدادات اجتماعية

(7) تُعدّ الفصول الكبرى التي خصصها هابرماس لرواد السوسيولوجيا الحديثة في المجلدين معاً، والقضايا التي تناولها، والتي أعاد بناءها، من منظور بردايم الفعل التواصلية، أبرز تعبير عن هذا التأسيس لنظريته، انطلاقاً من العلوم الاجتماعية.

(8) Distorted Communication.

(9) Jürgen Habermas, *Zwischen Naturalismus und Religion* (Frankfurt am Main: Suhrkamp Verlag, 2009), pp. 15-27.

وقد استفاد من نظريته في أخلاقيات المناقشة. وتوجت أبحاثه في هذا المجال بمؤلفات عديدة، مثل: الوعي الأخلاقي والفعل التواصلي، وأخلاقيات المناقشة، والحقيقة والتبرير. وتعد هذه المساهمة من المساهمات النوعية في تطوير السجال الفلسفي المتعلق بـ "العقل العملي" Practical Reason الكانطي في القرن العشرين؛ إذ نجد عودة قوية لهذه الفلسفة لدى رولز، وآلان رونو Alain Renault، ولوك فيري Luc Ferry، وإرنست توغندهات Ernst Tugendhat، وآبل، وهانز يونس Hans Jonas (1993-1903). فهذه النظرية لدى هابرماس تتأسس على المناقشة والحوار، في أفق بناء معايير أخلاقية متفق عليها؛ من أجل المحافظة على تماسك المجتمع واندماجه. وهذا الاندماج بمنزلة الرهان الأساسي لنظرية الفعل التواصلي كما طورها هابرماس في كتابه العمدة نظرية الفعل التواصلي (في المجلدين).

وإذا كان كانط قد انطلق من السؤال: كيف يمكنني أن أعرف؟ وتساءل عن الشروط الضرورية للمعرفة، فإن السؤال الهابرماسي هو عن الشروط الضرورية لتحقيق اندماج ممكن. وبعد هذه المساهمة، سيعمل على تطوير منطلقات النظرية التواصلية في مجال الفلسفة السياسية؛ إذ سيستثمر أسس أخلاقيات المناقشة في مقاربتة مسألة الديمقراطية التي صاغها في نظريته، والتي سماها بردايم الديمقراطية التشاورية⁽¹²⁾.

(12) Mohamed Lachhab, "Democratie deliberative et droits de l'homme chez Habermas," in:

محمد الأشهب [وآخرون]، "مسارات العلم والحياة: في التأسيس والالتزام، العلوم الاجتماعية والتفكير في قضايا: السياسة، الدولة، السياسات"، تنسيق حسن طارق وسعيد بنيس، مجلة السياسات العمومية، ج 2، العدد 21 (ربيع 2016)، شوهده في 2023/4/10، في: <https://bit.ly/3ZNizWv>

إضافة إلى هذا السجال، نستحضر سجلات أخرى، خاضها هابرماس مع مدارس ونظريات فلسفية؛ ما أضفى على كتاباته طابعاً حوارياً Dialogique. وفي هذا السياق، نذكر سجاله مع الفلسفة الوضعية Positivism، والنظرية النسقية لنيكلاس لوهمان Niklas Luhmann (1927-1998)، والفلسفة التأويلية لهانز جورج غادامير Hans-Georg Gadamer (1900-2002)⁽¹⁰⁾، وسجاله الكبير مع فلاسفة ما بعد الحداثة Postmodern Philosophers، والحركة الطلابية اليسارية الراديكالية، وكذلك مع رواد الفلسفة التحليلية Analytic Philosophy، أمثال: جون سورل John Searle، وجون لانجشو أوستن John Langshaw Austin (1911-1960)، وبول غرايس Paul Grice (1913-1988)، وأخيراً، حواراته مع أبرز منظري الفلسفة السياسية الأمريكية، مثل جون رولز John Rawls (1921-2002)، ورونالد دوركين Ronald Dworkin (1931-2013)⁽¹¹⁾.

لم يتوقف هابرماس، في سياق تعميقه نظرية الفعل التواصلي على المدارس اللغوية والسيكولوجية، بل انفتح أيضاً على فلسفة الأخلاق الكانطية Kantian Ethics، على نحو خاص، لإعادة بنائها في ضوء الفلسفة البيئداتية Intersubjective، بوصفها بديلاً من الفلسفة الذاتية. وكان له في ذلك نقاش فلسفي، مع زميله كارل آطو آبل Karl-Otto Apel (1922-2017)،

(10) ينظر: محمد الأشهب، فلسفة اللغة: قضايا التواصلي والتأويل والترجمة (أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2021).

(11) محمد الأشهب، "الحق في العدالة في الخطاب الفلسفي المعاصر"، في: محمد الأشهب [وآخرون]، ما العدالة؟ معالجات في السياق العربي (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 107-163.

سنجد أنّ لكل ذات مستقلة حقّ إبداء الرأي في القضايا المطروحة للنقاش في الفضاء العمومي. وفي ظل هذه العملية التواصلية المؤسّسة على المناقشة العقلانية، سيتكون الرأي العام. وإضافة إلى الأهمية التي أضحت تحتلها الديمقراطية في الفضاء العمومي المعاصر، سنجد أنّ هابرماس ينظر إلى الديمقراطية باعتبارها السبيل الأوحّد لحلّ المشكلات المتعلقة بالفرد والمجتمع.

كلّما ظنّ القارئ أنّ مسيرة هابرماس الفلسفية قاربت نهايتها، فوجئ بمؤلفات أخرى له لا تقلّ أهمية عن مؤلفاته السابقة. وهنا تجدر الإشارة إلى الكتاب الذي خصّصه لتاريخ الفلسفة في مجلدين، هذا أيضًا تاريخ الفلسفة: تركيبيّة غربية للإيمان والمعرفة⁽¹³⁾، الذي لم يُقدّم فيه تاريخًا للفلسفة بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، ولم يكن فيه مؤرخًا للفلسفة أيضًا، كما عودنا بعض المؤرخين، بل إنّ الأمر يتعلق بتفلسف ينطلق من تاريخ الفلسفة بهدف إلى قراءة الفكر الفلسفي الغربي، وبيان كيفية تطوّر سيرورة التعلم من العصر المحوري Achsenzeit إلى النظرية النقدية التي يُعدّ هابرماس نفسه أحد روادها. ولهذا، فإنّ تاريخ الفلسفة الذي قدّمه هابرماس في هذا العمل لا ينفصل عن منظور تطوير نظرية الفعل التواصلية التي وضع معالمها الأساسية في الكتاب المُترجم.

يتبيّن من خلال هذه النظرة البانورامية لأهمّ مفاصل "نظرية الفعل التواصلية" لهابرماس، في مستوياتها المختلفة، أنّ فلسفته في التواصل

وفي الوقت الذي كان يعتقد فيه متتبعو هابرماس أنّ كتاب نظرية الفعل التواصلية سيظلّ أهمّ مؤلّف لديه في مسيرته الفلسفية، إذا به يفاجئ الأوساط الأكاديمية الفلسفية بكتاب لا يقلّ أهمية عن مؤلفاته السابقة، هو: العيانيّة والصلاحية (1992). وقد حظي هذا الكتاب باهتمام واسع على الصعيد العالمي، واعتُبر أهمّ كتاب قدّم في الفلسفة السياسية المعاصرة بعد كتاب نظرية في العدالة لرولز. وهو في الأصل تطوير لمحاضرات قدّمها عام 1986 عنوانها "الحق والأخلاق". وفي هذين الكتابين، كشف هابرماس عن توجه فلسفي آخر، وذلك من خلال الاعتماد على مرجعية الفلسفة السياسية الأميركية بالنسبة إلى رولز، ودوركين، وفرانك ميشلمان Frank Michalman. إنّ الاهتمام بالفلسفة السياسية الذي لازم هابرماس، بدايةً من كتابه التحول البنيوي للفضاء العمومي، ظلّ وفياً له في منطلقات نظرية الفعل التواصلية. ويمكن أن يلاحظ القارئ تطوير هابرماس لمفاهيم العقلانية التواصلية في ارتباطها الوثيق بمفاهيم الديمقراطية التشاورية، والسلطة التواصلية، والمجتمع المدني أيضًا؛ باعتباره فضاءً يتوسط الدولة والمجتمع، وليس فضاءً مُتماهيًا مع الدولة، أو نقيضًا لها فحسب. ولهذا، نرى في قراءتنا لكتاب نظرية الفعل التواصلية أنه كتاب مؤسّس للمفاهيم التي ستبنى عليها الفلسفة السياسية لهابرماس لاحقًا، بل فلسفته في الدين التي ستظهر في كتاباته المتأخرة أيضًا.

إنّ مقارنة هابرماس لسؤال الديمقراطية تُعد في وقتنا الراهن مقارنة مهمة؛ لأنها ترتبط بأخلاقيات الحوار والمناقشة. فهو يريد تأسيس ديمقراطية على أساس جماعة مثالية للتواصل، خالية من أيّ هيمنة. ثمّ إنّ مفهوم التشاور هو أيضًا مفهوم مركزيّ؛ ففي هذا البردايم التشاوري أو التداولي،

(13) يُعتبر كتاب هابرماس الأخير المتعلق بتاريخ الفلسفة تويجًا لهذا المسار الفلسفي الطويل. وهو عمل لا يُورّخ للفلسفة، بل يتفلسف فيه بناءً على تاريخ الفلسفة، استنادًا إلى منطلقات "نظرية الفعل التواصلية". صدر هذا الكتاب عام 2019 في جزأين؛ وبعد أضخم مؤلّف في مؤلفاته كلّها.

ثانياً: دواعي ترجمة الكتاب وأهميته في السياق العربي

كثيراً ما يطرح المترجمون تساؤلات من قبيل: ماذا تُترجم؟ ولماذا تُترجم؟ ونعتقد أنّ الإجابة عن مثل هذين السؤالين، بالنسبة إلى هابرماس ونظرية الفعل التواصلي، تكمن ببساطة في أنّ المسكيني اختار ترجمة هذا الكتاب لأهميته في تاريخ النظرية النقدية، ولأهمية شخصها ممثلاً جيلها الثاني هابرماس، ولأهمية مسيرة هابرماس نفسه أيضاً؛ لأنّ هذا الكتاب مثل تحوُّلاً في مساره الفلسفي من جهة، وتحوُّلاً في النظرية النقدية لاحقاً من جهة ثانية. إنّ الأهمية الإبيستيمولوجية لا ينكرها أحد؛ فالكتاب يُعد واحداً من أهم المؤلفات الفلسفية في القرن العشرين. لكن الأهم من ذلك بالنسبة إلى المترجم هو أهمية النقاش الراهن المتعلق بالدين في الفضاء العمومي⁽¹⁴⁾. وحتى إن كان كتاب نظرية الفعل التواصلي لا يتناول الموضوع تناولاً مباشراً، فإنّ مؤلفاته المتأخرة؛ أي التي كتبها بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، مثل: مستقبل الطبيعة الإنسانية: نحو نسالة ليبرالية، وبين النزعة الطبيعية والدين والإيمان والمعرفة، وأخيراً تاريخ الفلسفة، كانت بمنزلة سجلال جينيالوجي بين المعرفة والإيمان، لا يمكن فهمها إلاّ في ضوء الأبحاث التي أثارها هابرماس عن "الدين"، من خلال الرجوع إلى "سوسيولوجيا الدين" لفيبر، وربط "الحدائث" بـ "العقلانية الاجتماعية"، وبضرورة نزع "الطابع السحري" في تفسير العالم؛ وهي عملية لن تجري إلاّ بجعل الدين جزءاً من

تُشكّل برديماً فلسفياً متميزاً، وأنّ مذهبه التواصلي يمتد إلى جميع أعماله الفلسفية الأكاديمية وكتابات السياسية التي لا يمكن فصلها عن توجهه الفلسفي العام الذي تؤطره نظرية الفعل التواصلي؛ بدايةً من كتاباته المبكرة إلى وقتنا الراهن، بما في ذلك الأبحاث المتأخرة جداً التي خصّصها لفلسفة الدين، بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 (الولايات المتحدة الأميركية)، والتي توجّهها مؤخراً بالكتاب المشار إليه، متتبّعاً مسار تطور "العقلانية التواصلية"، و"الحرية التواصلية"، و"حرية التعبير والتفكير"، في إطار سيرورة تَعَلُّم تمتد إلى ما يتأهز 3000 سنة. ولا يفهم هذا العمل الذي سلك فيه هابرماس مقاربةً جينيالوجية إلاّ بالعودة إلى منطلقات نظرية الفعل التواصلي التي تبلورت منهجياً في كتابه نظرية الفعل التواصلي تحديداً. ولهذا السبب، فإنّ هذا الكتاب، الذي ترجمه المسكيني، يُلخّص ما قبله، ويُؤسّس لما بعده. بل إنّ كتابات هابرماس "الثانوية" عن الفضاء العمومي، وحواراته العديدة التي أجراها في الصحف والمجلات، أيضاً، لا تُفهم إلاّ في ضوء هذه الخلفية الفلسفية التي تبلورت في نظرية الفعل التواصلي. لقد كان المسكيني يولي مؤلّفات هابرماس اهتماماً قبل أن يترجم بعضها، وقد كان واعياً بأهمية هذا الكتاب وراهنيتها، من دون أن يقتصر ذلك على مستوى المضامين التي يقدمها حول "مسألة الحدائث"، بوصفها مفهوماً محورياً في الكتاب، ومن دون أن يقتصر أيضاً على نظرية الفعل التواصلي، باعتبارها نظرية تحاول إعادة بناء خطاب العقلانية والحدائث في ضوء منطلقات الفعل التواصلي والعقلانية التواصلية، بل يضاف إلى ذلك وَعَبْهُ بأهمية هذه الترجمة في السياق العربي المعاصر.

(14) ينظر: محمد الأشهب، "دور الدين في الفضاء العمومي: نموذج النظرية النقدية لهابرماس"، في: محمد الأشهب [وآخرون]، المجتمع والدين والسياسة (أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2021)، ص 255-275.

المطروحة، بما في ذلك القضايا الدينية، من دون خوف. فوحده الإيمان الحر يمكنه أن ينزع هذه الهالة عن الدين المحتكر من لدن بعض الفقهاء. والمترجم، بحكم شعوره براهنية هذه المسألة في العالم العربي والإسلامي، انتبه إلى أهمية ربط هذا العمل بالنقاش المتعلق بـ "الدين في الفضاء العمومي" في الغرب الذي يمكن الاستفادة منه على الأقل منهجياً، وليس إبستمولوجياً فحسب. يقول المسكيني في هذا السياق: "لن يهّمنا الكتاب إذاً لأسباب إبستمولوجية بحثة أو لسدّ ثغرة بحثية في مجال تخصص بعينه. إنه عندنا كتاب يساعدنا على بلورة خطاب جديد حول أنفسنا العميقة في وقت جدّ خطر من تاريخها: وقت النقاش الجذري والأخير حول دور الملة. إن أفق الحاجة إلى ترجمة هبرماس هو على وجه الدقة أفق النقاش حول دور الدين في مجتمعاتنا الحديثة" (مج 1، ص 48-49). ويضيف المترجم مستعملاً ضمير "نحن" للتأكيد على الدافع والحاجة الوجودية للترجمة قائلاً: "نحتاج إليه في مفصلٍ خطر جدّاً من تاريخ أنفسنا، تاريخ الخروج من طور أخلاقي إلى آخر جديد وجدّ معقّد. بعبارة حادّة: 'نحن' أمام أفق فهم لأنفسنا الجديدة تهدّده ليس تحدّيات المجتمعات ما بعد الصناعية فحسب، بل أيضاً عودة الدين في معنى "الملة" الوسيطة. إن الدين فرض وضعية تأويلية وخطابية لا يمكن لأيّ تفكير معاصر تفاديها" (مج 1، ص 48). وهذه المسألة التي نتقاطع فيها مع المسكيني، وفلسفته العامة في نقل هذا الكتاب إلى اللسان العربي، تدفعنا إلى أن نُضيف إلى كلامه أنّ هذا الكتاب على المستوى المنهجي هو كتاب يعلم ويُرَبِّي في المرء "ثقافة الإنصات للآخر" في الفضاء العمومي؛ الذي هو فضاء مفتوح للجميع من دون إقصاء. فكثيراً ما ترد في

النقاش العقلاني، وإخراجه من سَطوة الرهبان ورجال الدين.

إنّ هذه الأهمية الفلسفية للكتاب تُعد أيضاً بمنزلة "هواجس فلسفية" للمسكيني في أبحاثه التي تناول فيها مواضيع متعلقة بفلسفة الدين، وبلورها في كتابه: الإيمان الحر أو ما بعد الملة⁽¹⁵⁾، وهو كتاب حاول أن يؤسس فيه لما يسميه "الإيمان الحر" الذي ينفلت من كل سلطة دينية تقليدية، مثل الإيمان الذي أسّسه فلاسفة الحداثة بدايةً من كانط إلى هابرماس، مُروراً بباروخ سبينوزا Baruch Spinoza (1632-1677) وآخرين⁽¹⁶⁾.

إنّ الناظر في مؤلفات المسكيني، في هذه الفترة، يُلاحظ تزامناً بين هذه الانشغالات وترجمة كتاب نظرية الفعل التواصلية لهابرماس. وهذا يعني أنّه في بعض الأحيان قد يترجم أعمالاً يجد فيها إجابات عن بعض الأسئلة التي يطرحها، ولعله وجد ما يقني بذلك في إجابات هابرماس عما يسميه إضفاء "الطابع اللغوي" على المقدس، أو كما يترجمه هو بـ "السنة المقدس" *Versprachlichung des Sakralen*، وهي عملية تجعل "المقدس" موضوع نقاش لتحريره من طابع "القدسية" الذي أصبح مُحاطاً بها. أو بعبارة أخرى، أن يكون لكلّ العقلاء، خاصةً في الوطن العربي، حقّ التدخل في القضايا

(15) تزامنت ترجمة المسكيني لهذا الكتاب مع اهتمامه بمسألة "حضور الدين" في الفضاء العمومي، وهو اهتمام يُترجم في الكتاب الذي نشره في الموضوع عام 2018 بعنوان: الإيمان الحر أو ما بعد الملة: مباحث في فلسفة الدين. وهذا الأمر يدل على أنّ المسكيني طوال مدة ترجمته لكتاب نظرية الفعل التواصلية كان منشغلاً بالمسألة نفسها، وهو انشغال لا ينفصل عن الانشغال المركزي لديه، ولدى كثير من الباحثين العرب، بقضايا الديمقراطية ودور الدين في الفضاء العمومي.

(16) فتحي المسكيني، الإيمان الحر أو ما بعد الملة: مباحث في فلسفة الدين (الرباط: مؤمنون بلا حدود، 2018)، ص 11.

من معرفتهم بعالم الحياة الخاص بهم" (مج 1، ص 60).

ثالثاً: القضايا الكبرى لنظرية الفعل التواصلي

1. عالم الحياة باعتباره خلفية لسيرونة التعلم

يكتسي مفهوم "عالم الحياة"، أو "العالم المعيش"⁽¹⁷⁾، أهمية كبيرة في نظرية الفعل التواصلي؛ باعتبارها نظرية نقدية في المجتمع، هدفها تعزيز لُحمة التواصل والتفاعل والاندماج بين الأطراف المتفاعلة في المجتمع. وتُعد عملية عقلنة عالم الحياة من المداخل الأساسية لعقلنة سيرونة التطور الاجتماعي. ونرى أنّ تصاعد الخطابات اليمينية الشعبوية، وأنّ التطرف بمختلف ضروبه الدينية والعرقية واللغوية في العالمين العربي والإسلامي، وحتى في العالم الغربي، ما هما إلاّ تعبيرٌ عن التشوهات التي أصابت "العالم المعيش"، باعتباره العالم المشترك بين المتتمين إلى الجماعة⁽¹⁸⁾.

ومن منطلق أهمية هذا المفهوم في نظرية الفعل التواصلي، يُعد البحث في العلوم الاجتماعية مدخلاً إلى كشف الأعطاب التي تعرقل عقلنة عملية تواصل صحي داخل المجتمع. ومن شأن البحث الميداني في فرضيات هذه الأعطاب أن يساعد صاحب القرار على اتخاذ مبادرات قادرة

(17) غالباً ما تُترجم بطريقتين مختلفتين، لكن هذا الاختلاف لا يفسد المعنى المقصود. فالمرجم المغربي إسماعيل المصدق في كل ترجماته لأعمال إدوموند هوسرل Edmund Husserl (1859-1938)، أو هايدغر، يترجمها بـ "العالم المعيش"، بينما يفضل المسكيني ترجمتها بـ "عالم الحياة".

(18) ينظر: المجلد الثاني من الكتاب، ففيه تفصيل جيّد لثنائية النسق (أو المنظومة) والعالم المعيش (أو عالم الحياة).

الكتاب فكرة "سيرونة التعلم" Lernprozess. ومفهوم "التعلم" هو من المفاهيم المركزية في نظرية الفعل التواصلي؛ إذ إنّ سيرونة التعلم ذات المنحى الأفقي، وليس العمودي، نتعلم فيها من بعضنا كيفية عقلنة كلامنا وسلوكنا وأفعالنا وقيمنا، على أساس أنّ العقلانية الأساسية التي ينظر لها هابرماس في عمله هذا هي "عقلانية تواصلية" غايتها تحقيق التفاهم بين المعنيين بالقضايا موضوع النقاش في الفضاء العمومي.

وباختصار، يمكن القول إنّ نظرية الفعل التواصلي هي نظرية في التعلم. والمساهمة الأساسية له في الكتاب الذي نحن بصدد مراجعته، بحسب ما ذهب إلى ذلك أكسل هونيث Axel Honneth، تكمن في الخطوة الأساسية التي قام بها من أجل تحويل مقدمات نظريته في التواصل إلى نظرية في المجتمع عبر إقحامه مفهوم "عالم الحياة" أو "العالم المعيش" (مج 1، ص 60). إنّ هذا العالم الذي تعرّض لعملية التعرية والتآكل، بسبب هيمنة الأنساق أو المنظومات الاقتصادية والسلطات المختلفة التي جعلت العقلانية الأدوات تهيمن على حساب العقلانية التواصلية، هو ما يريد تصحيحه هابرماس عن طريق إعادة الاعتبار للعالم المعيش؛ بالنظر إلى أنه الخلفية الثقافية والاجتماعية التي يتحقق التعلم في إطارها، ويتّسعُ أفقه ومساره. وهذه هي أهم المكتسبات التي يمكن لعالم الاجتماع لدينا الاشتغال بها؛ لمزيد من الفهم لعالمنا المعيش من أجل "عقلنته"، والبحث عن مكامن القوة فيه.

"إن أعضاء مجتمع ما، كما بين ذلك هبرماس في الخطوة النسقية الثانية من حججه (الباب السادس، الفصل الثاني) لا يكتفون بنقل قناعاتهم الخلفية فحسب، بل هم في ثنايا مسارات التعلم التي مفرّ منها إنما يوسّعون أيضاً في الوقت نفسه

لسانها، فلا ريب في أنّ واقعها، في أمس الحاجة إلى تأسيس نظري لمقاربة هذا النوع من التفكير الساعي لتمتين عرى المجتمع التعددي، استناداً إلى مفهوم الفعل التواصلي.

إنّ تبني هابرماس لمفهوم العقل، بوصفه بناءً اجتماعياً، يفهم منه أنّ العقل التواصلي الهابرماسي ليس عقلاً متمركزاً حول الذات بل هو عقلٌ منفتح على عقول وثقافات أخرى. وعلى الرغم مما كُتب عن مركزية فلسفة التواصل لدى هابرماس، فإنّ الأمر الأساسي بالنسبة إلينا هو التمييز الذي يفتح أفقاً للآخر للمساهمة في محتوى القيم الكونية، وتوسيع إمكاناتها التأويلية، على أساس أنّ كل المعنيين لهم حقّ المشاركة في ذلك من منطلق ثقافتهم؛ لكونها تشتمل على ما يكفي من المضامين المعرفية والقيمية التي يمكنها المساهمة في بناء "الكونية"، باعتبارها مشروعاً غير مكتمل. وهذا التصور، الذي نجده عند الفيلسوف البنيني بولين هونتوندجي Pauline Hontondji⁽²¹⁾ الذي يدافع عمّا يسميه "الكونية النقدية"، يمكن تعزيره في الفكر العربي المعاصر، من خلال تلقيه على نحو جيّد، واستثمار البعد المعياري الكامن في كتاب نظرية الفعل التواصلي بجزأيه.

2. الحداثة بوصفها مشروعاً غير مكتمل وأهميتها الثقافية

لا تنفصل ترجمة هذا المشروع عن الهاجس الذي يراود المسكيني وبعض الباحثين العرب بشأن

على تحقيق "اندماج صحي"، يحدّ من أمراض المجتمع الحديث. فعملية التعلم، التي تُعد مفهوماً مركزياً في النظرية النقدية، تجري في إطار التفاعل مع "العالم المعيش"؛ باعتبارها خلفية مشتركة بين أعضاء المجتمع، وهي عملية مزدوجة تتعلق المرحلة الأولى منها بتعلم الذات في علاقتها بذاتها. أما المرحلة الذاتية، فهي تتعلق بتعلم الذات من الآخر⁽¹⁹⁾. ويستثمر هابرماس التعلم في أفكار متعلقة بالديمقراطية والتربية والتقدم والمناقشة والتواصل؛ إذ يكاد القارئ يقول إنّ نظرية هابرماس هي نظرية في التعلم؛ أي يمكن قراءة متن نظريته النقدية في ضوء هذا المفهوم المركزي⁽²⁰⁾.

فإذا كان الحافز من وراء "نظرية العقلانية" التي طورها هابرماس في نظرية الفعل التواصلي هو الفعل الموجه بالتفاهم، باعتباره الجانب المهم في نظريته الاجتماعية، فإن واقع الحال اليوم يؤكد، بعد مرور أربعين عاماً على نشر الكتاب، أنه كُتب بالأمس؛ إذ يكفي أن ينظر المرء في تيرة تصاعد تيارات اليمين المتطرف في ألمانيا نفسها، ليدرك التحدي الذي تواجهه المجتمعات الأوروبية، والمجتمع الألماني على وجه الخصوص؛ على نحو أصبحت فيه الديمقراطية "تأكل أبناءها"، ومن ثمّ يدرك قيمة نظرية الفعل التواصلي الساعية لبناء التفاهم على الفعل التواصلي. أما واقع حال الدول العربية التي نُقل الكتاب إلى

(19) ينظر: الفصل المخصص لهربرت ميد في المجلد الثاني من الكتاب.

(20) ينظر مادة سيرورة (أو عملية التعلم) كما وردت في الكتاب الذي خُصص لأهم المفاهيم الفلسفية التي طورها هابرماس في نظريته النقدية:

David S. Owen, "Learning Processes," in: Amy Allen & Eduardo Mendieta (eds.), *The Cambridge Habermas Lexicon* (Cambridge: Cambridge University Press, 2019).

(21) Pauline Hontondji, "Construire l' universel: un défi transculturel," *Methodes (s): Africain Review of Social Sciences Methodology*, vol. 2, no. 1-2: Epistemological Fractures in a Globalized World: Normalizations, Debates and Alternatives in the Social Sciences (2017), pp. 160-161; Franziska dubgen & Stefan Skupien, *African Philosophy as Critical Universalism* (Switzerland: Palgrave Macmillan, 2019).

الأقل يخوضون في نقاشات عميقة حولها، إلى أن يتجاوزهم الزمن، وتفرض هذه المُخرجات نفسها بقوة الواقع، فإنَّ الحداثة المتعلقة بدمقرطة الحياة السياسية، والاجتماعية، وعقلنة السلوك الثقافي، لا تزال تراوح مكانها. ولهذا فإنَّ أهمية الكتاب تتمثل في تصور جيد متعلق بأهمية عقلنة الثقافة في تطور المجتمع، وقد تمكن هابرماس في كتابه هذا من بسط تصور ماكس فيبر بخصوص هذه المسألة؛ ولا سيما في الفصل "نظرية ماكس فيبر في العقلنة" (مج 1، ص 279-374).

3. العقلانية الغربية وسؤال الحداثة

المقصود بالعقلانية في هذا السياق هو "العقلانية الغربية"، بطبيعة الحال، وكيفية تطور العقل الغربي، ولهذا نجد هابرماس قد حرص جيداً على تتبع مسار تطورها مستعملاً في ذلك أدوات منهجية، ورؤية نقدية، لإعادة بناء مفهومها، وخاصة التلقني الذي حظي به فيبر في هذه العقلانية، منذ كارل ماركس (Karl Marx 1818-1883)، وصولاً إلى جورج لوكاتش (György Lukács 1885-1971)، وأدورنو وهوركهايمر، وهو تلقى طغى عليه طابع "التشيؤ" و"فلسفة الوعي". تلك هي الخلاصة الأساسية التي توصل إليها هابرماس بعد قراءته النقدية لعقلانية فيبر في المجلد الأول. ولتجاوز هذا المأزق الذي عرفته العقلانية الغربية، سيوظف هابرماس عدته المنهجية، مُستعيناً بالبرديات الكلاسيكية لعلم الاجتماع، كما جرى تطويرها مع ميد وإميل دوركهايم (David Émile Durkheim 1858-1917)، باعتبارهما مؤسسي بردايم جديد مهّد لهابرماس إعادة صياغة مفارقات العقلانية الغربية، في إطار مفاهيم تنطلق من الفعل التواصلي والفلسفة البينذاتية Intersubjectivity، وليس من

مشروع الحداثة غير المنجز؛ إذ سبق للمسكيني أن ترجم مقالة هابرماس "الحداثة - مشروع لم يكتمل"⁽²²⁾ التي تندرج في السياق نفسه، والتي تعكس كذلك الهاجس نفسه الذي يحرك هذا الباحث تأليفاً وترجمة. فتعريبه للكتاب قد كان عن وعي بأهمية "سؤال الحداثة"، و"العقلنة" ورهاناتها، في سبيل إيجاد طرائق للنهوض بالمجتمعات العربية، التي لا تزال تعيش التخلف، والاستبداد، وموقفاً متردداً من الحداثة، بوصف ذلك مشروعاً لا ينفصل فيه الثقافي والسياسي عن الاقتصادي، والتقني، والعلمي. فالحداثة برمتها ظلّت دائماً رهان المثقف العربي ترجمته وتأليفاً. ومن هذا المنطلق يُمكن القول إنَّ رهان المسكيني في ترجمته لا يخرج عن رهاناته الأخرى وهو يكتب عن "سؤال الحداثة وأخواتها". فالكتاب الذي ترجمه يطرح قضايا راهنة تهمّ القارئ العربي الساعي لبناء "مجتمع حدائي" معقلن يقطع مع كثير من المظاهر التقليدية التي تعرقل مسيرة التحديث والحداثة⁽²³⁾.

فإذا كان مسار التحديث، بالمعنى التقني، هو تجهيز البنى التحتية والانفتاح على مكتسبات "الحداثة التقنية" من دون أيّ مقاومة تذكر - على عكس ما كنا نعيه سابقاً - بحيث كان بعض الفقهاء يحرمون كل مستجدات الحداثة، أو على

(22) هابرماس، "الحداثة مشروع - لم يكتمل"، ص 183-196. ينظر أيضاً، ترجمة أخرى للمقالة نفسها، في: بورغن هابرماس، "الحداثة مشروع غير منجز"، ترجمة جورج تامر، مراجعة جورج كتورة، في: بورغن هابرماس، الحداثة وخطابها السياسي (بيروت: دار النهار للنشر، 2002)، ص 15-35.

(23) ينظر: الفصل الثامن المتعلق بالحداثة لدى فيبر، والفصول الأخرى المتعلقة بالعقلانية، والعقلنة الاجتماعية، والتشيؤ، وهي قضايا متشابهة، يُراهن هابرماس فيها على إعادة بناء خطاب "العقلانية الغربية"، وكيفية تلقي الغرب، خاصة الألمان، لنظرية فيبر، فالعقلانية التواصلية هي في صلب فكرة إعادة بناء مشروع الحداثة الغربية.

تواصلية" تجعل من الآخر طرفاً ندياً مشاركاً في عملية بناء الحقيقة؛ من خلال الاعتراف بحقه في رفع ادعاءات صلاحيته، والمنافحة عنها من دون تعصب للرأي الذاتي.

إنّ هذا المشروع هو الذي عبّر فيه هابرماس، في الطبعة الثالثة من كتاب نظرية الفعل التواصلية، عن المقاومة التي تعرض لها من لدن أنصار فلسفة الوعي بقوله: "لقد تم الدفاع عن فلسفة الوعي ضد تغيير البراديغم الذي شرّع فيه، وعلى وجه الخصوص تمت المنافحة عن التصور الفينومينولوجي لعالم الحياة (Lebenswelt)، وذلك ضد المحاولة الرامية إلى إعادة صياغته بالاستناد إلى نظرية في التواصل" (مج 1، ص 67). وقد ظلّ هابرماس مديناً للآباء المؤسسين للسوسيولوجيا في هذا المشروع بالنظر إلى التحول الذي أحدثه في البردايم الذي يهيم، وهو تحوّل قدّم تصوراً آخر عن "العقلانية الفعّالة" التي تعتبر نظرية الفعل التواصلية بمنزلة توسيع لها، من خلال تجاوز "العقل الأداة" إلى مجال تواصلية أرحب يستوعب أعطاب العقلانية الأداة، ويُقوّم اعوجاجات التواصل المُشوّه. فكل هؤلاء ساهموا، على نحو أو آخر، في التحرر من معضلات فلسفة الوعي. ومن خلال تأسيس ميد علم الاجتماع على نظرية في التواصل، وتأسيس دوركهيم نظرية في التضامن المجتمعي، فإنهما ساهما في تنزيل نظرية فيبر في العقلانية من خلال إحداث دمج بين الإدماج الاجتماعي والمنظومات القائمة في المجتمع، تُقيم الصلة بين الإدماج الاجتماعي والإدماج في المنظومة" (مج 2، ص 23).

وقد انطلق هابرماس، لإنجاز ما خطط له في هذا الكتاب، الذي يُعتبر كتاباً جينولوجياً في مسألة

فلسفة الوعي أو الفلسفة الذاتية، علاوةً على قلب العلاقة التي هيمنت على الفلسفة الذاتية التي كانت قائمة على نموذج "ذات - موضوع" إلى نموذج آخر قائم على ثنائية "ذات - ذات".

هذه العلاقة الجديدة من شأنها أن توسع فهمنا للعقلانية التواصلية التي تختلف عن "العقلانية الأداة" المستندة إلى النموذج الأول. وقد وجد هابرماس في ميد ونظريته الاجتماعية سنداً في تعميق تصوره التواصلية للعقلانية والفعل الموجه وفقاً لمعايير معيّنة؛ من أجل تحقيق الاندماج الاجتماعي: "إن تغيير البراديغم الذي بدأ يتبلور مع علم النفس الاجتماعي لدى ميد هو - في سياقنا - ذو أهمية، لأنه يفسح النظر أمام مفهوم تواصلية عن العقلانية" (مج 2، ص 29). وحتى أثناء انتقاد "المنظومة" أو "النسق" في المجلد الثاني، فإنّ الهاجس الذي لازمه في الكتاب كلّه يوحى بإعادة بناء خطاب العقلانية الغربية، في أفق إتمام "مشروع الحدائث" باعتباره مشروعاً غير مكتمل. وهي المهمة التي استمر فيها في كتاباته اللاحقة أيضاً؛ مثل الخطاب الفلسفي للحدائث الذي يعتبر دفاعاً عن "الحدائث الغربية" ضد أصوات "ما بعد الحدائث".

كأنّ هابرماس يكمل ما بدأه في "نظرية الفعل التواصلية"؛ لكن ذلك انطلاقاً من تاريخ الفلسفة، وليس من كلاسيكيات علم الاجتماع. ولهذا؛ إن حضر في نظرية الفعل التواصلية فلاسفة وعلماء اجتماع من أمثال دوركهيم وفيبر وبارسونز وماركس وميد، فإنّ هيجل وهايدغر ونيتشه ودريدا وباطاي وفوكو، سيحضرون بقوة في كتاب الخطاب الفلسفي للحدائث. هذه النظرية التي دافع عنها ضد "فلسفة الوعي"، في كل برنامجها الإبيستيمولوجي الهادف إلى تأسيس "فلسفة

العقل والعقلانية والعقلنة في الفكر الغربي الحديث والمعاصر، من تأمل تمهيدي خصّ به العقلانية في علم الاجتماع من الناحية النظرية؛ وذلك لأهمية هذا المبحث في تناول مسألة العقلانية، مقارنةً بمباحث علمية أخرى مثل علوم السياسة والاقتصاد. ثمّ إنّ خصوصية علم الاجتماع بالنسبة إليه تكمن في تناوله الشمولي للمجتمع بدلاً من التركيز على ما هو فرعي فيه. وهذا ما عبّر عنه في قوله: "إنّ السوسولوجيا هي الوحيدة من فروع العلوم الاجتماعية التي حافظت على صلة بمشاكل المجتمع بكامله، فقد ظلت أيضاً على الدوام نظريّة في المجتمع، وبذلك لم تُقْصِ مسائل العقلنة (Rationalisierung)، ولا أعادت تعريفها، ولا قطعتها إلى أحجام صغيرة كما فعلت تخصصات أخرى [...] إنّ السوسولوجيا كما الأنثروبولوجيا الثقافية هما تَخْصُصان في مواجهة مع الطيف الكامل (ganzen Spektrum) لتجليات الفعل الاجتماعي، وليس مع أنماط الفعل الواضحة المعالم نسبياً التي يمكن ارتسامها بوصفها تلوينات من الفعل العقلاني بمقتضى غاية ما (zweckrational)" (مج 1، ص 85).

المطلّع على نظرية الفعل التواصلي لهابرماس في هذا الكتاب، وفي الكتابات اللاحقة المتعلقة بالوعي الأخلاقي والفعل التواصلي، وتوضيحاته المرتبطة بأخلاقيات المناقشة، يدرك الأهمية الكبرى لنظرية الحجاج في نظرية الفعل التواصلي التي يشغلها الاهتمام بالمنطق الصوري، فضلاً عن المنطق الحجاجي الذي يتركز على دراسة الأفعال الكلامية وكيفية اشتغالها في الحقل التداولي. ثمّ إنّ المُطلّع على خبايا هذه النظرية، والكتب السابقة له، يدرك بسهولة العلاقة الوطيدة بين هذا الكتاب والأبحاث التي قدمها لهابرماس عن التداوليات الكلية، ونظرية الأفعال اللغوية في ارتباطها بنظرية الحجاج. وفي سياق الإشكالية نفسها المتعلقة بالعقلانية، تناول لهابرماس السمات التي تميز الفهم الأسطوري والفهم الحديث للعالم.

استناداً إلى هذا التناول الشمولي لعلم الاجتماع المتعلق بالفعل الاجتماعي، يُفهم السبب الذي جعل لهابرماس يعيد بناء نظرية العقلانية من منطلق الدرس السوسولوجي الحديث؛ إذ إنّ رهانه الإبستيمولوجي هو تأسيس نظرية في التواصل، باعتبارها نظرية في المجتمع؛ تسعى للكشف عن الطاقات الكامنة في العلاقات التواصلية انطلاقاً من خلفية عالم الحياة. فالعقلانية التي ينشدها لهابرماس لا تنحصر في "العقلانية الغائية" الساعية للزيادة في الإنتاج، أو التحكم

العقل والعقلانية والعقلنة في الفكر الغربي الحديث والمعاصر، من تأمل تمهيدي خصّ به العقلانية في علم الاجتماع من الناحية النظرية؛ وذلك لأهمية هذا المبحث في تناول مسألة العقلانية، مقارنةً بمباحث علمية أخرى مثل علوم السياسة والاقتصاد. ثمّ إنّ خصوصية علم الاجتماع بالنسبة إليه تكمن في تناوله الشمولي للمجتمع بدلاً من التركيز على ما هو فرعي فيه. وهذا ما عبّر عنه في قوله: "إنّ السوسولوجيا هي الوحيدة من فروع العلوم الاجتماعية التي حافظت على صلة بمشاكل المجتمع بكامله، فقد ظلت أيضاً على الدوام نظريّة في المجتمع، وبذلك لم تُقْصِ مسائل العقلنة (Rationalisierung)، ولا أعادت تعريفها، ولا قطعتها إلى أحجام صغيرة كما فعلت تخصصات أخرى [...] إنّ السوسولوجيا كما الأنثروبولوجيا الثقافية هما تَخْصُصان في مواجهة مع الطيف الكامل (ganzen Spektrum) لتجليات الفعل الاجتماعي، وليس مع أنماط الفعل الواضحة المعالم نسبياً التي يمكن ارتسامها بوصفها تلوينات من الفعل العقلاني بمقتضى غاية ما (zweckrational)" (مج 1، ص 85).

بدلاً من "المعرفي"، ونجد "العلوم العرفانية" بدلاً من "العلوم المعرفية"؛ إذ على الرغم من أنّ كلمة "المعرفية" ليست دقيقة جداً، فإنها على الأقل ربما كانت أقرب إلى ذهن القارئ العربي من كلمة "العرفانية" التي لها حمولة معيّنة في التصوف الإسلامي. ونجد أيضاً "النزعة الريفية"، بوصفها مقابلاً لـ *Provinzialismus*، بدلاً من "النزعة الإقليمية". فمصطلح "الإقليمي" أكثر دلالة على النزعة المحلية والانغلاق والتمركز من مصطلح "الريفي" الذي له ملمح "جغرافي" مرتبط بمجال الطبيعة والفلاحة أكثر من ارتباطه بمجال الفكر والانتماء. أمّا "أخلاقيات الدعوة"، فهو مفهوم ذو حمولة دينية دعوية كما هو معروف في العالم الإسلامي، في حين أنّ "الدعوة" لدى فيبر لا تتعلق بهذا المعنى، بل بالعمل الذي رفعته الكنيسة البروتستانتية إلى درجة العبادة؛ وهذا موجود في الإسلام نظرياً، وقد أشار المترجم إلى ذلك. لكن حينما نقول "أخلاقيات الدعوة"، فإنّ القارئ العربي ربّما يظنّ أنّ فيبر يضع سلسلة من الأخلاقيات التي ينبغي أن يتّصف بها ممارس الدعوة لإنجاح مهمته الدعوية. ومثل هذا اللبس حريّ بالمترجم أن يزيله؛ لأنّ القارئ قد لا تكون له مرجعية فيبرية حتى يعرف القصد. ولهذا يُفضّل أن نختار العبارات المتداولة اليوم في الثقافة العربية الإسلامية؛ حتى لا تلبس على القارئ. والأمر نفسه يصحّ في كلمة "فداء" مقابل كلمة *Erlösung*، غير أنّ أقرب كلمة متداولة في هذا السياق هي كلمة "الخلاص"، ومنها طبعاً عقيدة الخلاص *Erlösungslehre*. لا ريب أنّ الفداء هو خلاص، ولكن المتداول أنّ الذي يقدّم كبشاً للفداء يكون ذلك منه بهدف الخلاص، وفي هذا السياق يُذكر أنّ المسيح فدى الآخرين بنفسه ليحقق لهم الخلاص. ولهذا كان الأخرى

رابعاً: ملاحظات بخصوص ترجمة بعض المفاهيم

لا يمكن الدخول في نقاش، في هذا الحيز، مع المترجم حول ترجمة بعض المفاهيم التي لا شك أنها تطرح صعوبة حقيقية في نقلها إلى اللسان العربي؛ وذلك بالنظر إلى التباعد الموجود بين اللغتين الألمانية والعربية من جهة، وبالنظر إلى طبيعة الإشكاليات التي خاض فيها هابرماس، والتي يصعب إيجاد مقابل لها في السياق العربي من جهة أخرى. ثمّ إنّ ندرة الترجمات لأعمال هابرماس من لدن أهل الاختصاص في الفلسفة الألمانية لم تُحقق تراكمًا في مجال ترجمة أعماله، على عكس ما نجده في الترجمات الإنكليزية والفرنسية والإسبانية. ولهذا، يمكن أن نتصور الصعوبات الكبيرة التي واجهت المسكيني في تعريف هذا الكتاب المهمّ.

واستناداً إلى تجربة المسكيني في ترجمة بعض نصوص هايدغر، ونيثشه وكانط، نجد أن خوضه في ترجمة كتاب مالهابرماس هو استمرارٌ للترجمات السابقة التي راكم فيها تجربة ذات أهمية كبيرة. وهي تجربة لم تخضع بعد لأي دراسة نقدية للحكم عليها على نحو أو آخر. ومن هذا المنطلق، فإننا لن نخوض في الترجمة النقدية؛ لأن مثل هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستقل، لكننا نشير إلى أنّ القارئ الذي يُقبل على قراءة هذا الكتاب يجد مفاهيم جديدة فيها اجتهداً، لكن عدم ألفته إيّاهما تجعله إزاء بعض الصعوبات إلى أن يتعوّد حمولتها الدلالية. ومن بين المفاهيم التي نجدها في الترجمة عبارة "السنة الأخلاقية"، بوصفها مقابلاً لكلمة *Sittlichkeit*، بدلاً من "الحياة الأخلاقية"، أو "الأخلاق الاجتماعية". ونجد كذلك "العرفاني" *Kognitiv*

للأبحاث" التي ستأتي لاحقاً في كل من الفلسفة الأخلاقية، والسياسية، وفلسفة الدين.

يُعد كتاب نظرية الفعل التواصلي بمنزلة "تدريب حوارى" بين هابرماس ومختلف المدراس السوسولوجية الحديثة والمعاصرة، مثل مدرسة دوركهايم، وفيرر، وميد، وبارسونز، وماركس، ولوهمان، إلى جانب نظريات فلسفة اللغة، والتداوليات، والنظريات الحجاجية. وهو حوار مكّن هابرماس، من إعادة بناء خطاب العقلانية الغربية في أفق التصدي لما يسميه "أمراض الحداثة الغربية". وعلى مستوى فلسفة الدين التي تحظى براهنية كبرى اليوم، فإنّ الكتاب يُعد أيضاً مساهمة نوعية في مسار هابرماس أيضاً. فالمتتبع لمساره الفلسفي، يجد أنّه سبق له أن ناقش "سؤال الدين" في كتابات سابقة عن نظرية الفعل التواصلي، لكن النقاش تعمق أكثر فأكثر في الفصول التي خصصها للمسألة الدينية من خلال استحضاره دوركهايم وميد، وخاصة في مسألة إضفاء الطابع اللغوي على المقدس. ولهذا، نرى أن عودة هابرماس إلى فلسفة الدين، في أبحاثه المتأخرة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، ومناقشته "عودة الدين" في الفضاء العمومي، وتناوله كيفية تدبير المقدس بين المتدينين والعلمانيين، يشكّل كلّ امتداداً لخريطة الطريق التي أعلن عنها في كتاب نظرية الفعل التواصلي، وخاصة تصور طبيعة العلاقة بين "العالم المعيش" و"النسق"، وهي علاقة مختلفة عمّا ورد في نظرية لوهمان النسقية؛ إذ ينبغي ألا تكون قائمة على الانفصال، بل على التفاعل. وتكمن أهمية مقارنة هابرماس كذلك في جَنّعه بين مقارنة ميد ومقاربة دوركهايم، بحكم تركيزهما على العالم المعيش والعمليات التفاعلية القائمة على اللغة والمعايير والرموز، ومقاربة لوهمان أيضاً القائمة على النظر

الاكتفاء بالدلالات البسيطة والمتداولة التي تفي بالغرض بدلاً من اقتراح مقابلات جديدة لا تكون دلالتها واضحة. وهذا الأمر يحضر في كثير من الاقتراحات؛ إذ تكون أمام المترجم إمكانية ميسورة لترجمة مصطلح بمصطلح آخر متداول، لكنه قد يختار الاجتهاد في مفاهيم ربما تطرح لبساً لدى القارئ العربي خاصة.

خاتمة

يمثّل كتاب نظرية الفعل التواصلي مرافعة فلسفية عن الحداثة الغربية من أجل بعث الروح فيها من جديد، بعد تعرض خطابها لانتقادات قوية من رواد ما بعد الحداثة. إنّ هذا الكتاب، وإن كان لا يحمل أي كلمة تحيل مباشرة إلى فكرة "الحداثة"، فإنه في الأصل دفاعٌ عن العقل باعتباره أهم مقومات الحداثة الغربية. لكن تصوّر هابرماس للعقل والعقلانية اختلف عن سابقه بإعادة صياغة مشروع العقلانية الغربية في ضوء مفاهيم الفعل التواصلي والعقلانية التواصلية، بدلاً من الارتباط بمفهوم العقلانية الغائية الأداة التي لا ينكر أهميتها، باعتبارها بعداً من أبعاد العقلانية الغربية. ويعكس كتاب نظرية الفعل التواصلي الجهد الفلسفي المكثف لهابرماس، طوال أكثر من ثلاثة عقود من الاشتغال بأهم البرديات الفلسفية والإنسانية والاجتماعية التي حاول، استناداً إلى مقاربات متعددة المباحث، أن يستخرج منها تصوّراً نقدياً للمجتمع، وهو تصور حقق به منزلةً له في الفضاء الثقافي الألماني، وفي نظرية مدرسة فرانكفورت النقدية، ثمّ إنه تصوّر جعل منه فيلسوف الفضاء العمومي والعقل التواصلي. وإضافةً إلى أنّ كتابه مثل تويجاً للأبحاث السابقة في سنوات الستينيات والسبعينيات، فهو أيضاً بمنزلة "خريطة طريق

إلى المجتمع بوصفه نسقًا يتألف من عدة أنساق مؤسس على مستويين متكاملين: العالم المعيش فرعية. وتركيبًا بين المقاربتين، خلص في نظريته والنسق. المتعلقة بالفعل التواصلي إلى تصوّر للمجتمع

References

المراجع

العربية

الأشهب، محمد [وآخرون]. ما العدالة؟ معالجات في السياق العربي. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.

_____ . "مسارات العلم والحياة: في التأسيس والالتزام، العلوم الاجتماعية والتفكير في قضايا: السياسة، الدولة، السياسات". تنسيق حسن طارق وسعيد بنيس. مجلة السياسات العمومية. ج 2، العدد 21 (ربيع 2016). في: <https://bit.ly/3ZNlzWv>

_____ . المجتمع والدين والسياسة. أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2021.

الأشهب، محمد. "هابرماس وإعادة بناء المادية التاريخية: من براديغم الإنتاج إلى براديغم التواصل". مجلة الأزمنة الحديثة. العدد 17-18 (2020).

المسكيني، فتحي. الإيمان الحر أو ما بعد الملة: مباحث في فلسفة الدين. الرباط: مؤمنون بلا حدود، 2018.

هابرماس، يورغن. الحداثة وخطابها السياسي. بيروت: دار النهار للنشر، 2002.

_____ . "الحداثة - مشروع لم يكتمل". ترجمة فتحي المسكيني. تبين. مج 1، العدد 1 (صيف 2012).

الأجنبية

Dubgen, Franziska & Stefan Skupien. *African Philosophy as Critical Universalism*. Switzerland: Palgrave Macmillan, 2019.

Habermas, Jürgen. *Auch eine Geschichte der Philosophie: Band 1: Die okzidentale Konstellation von Glauben und Wissen*. Berlin: Suhrkamp, 1985.

_____. *Zwischen Naturalismus und Religion*. Frankfurt am Main: Suhrkamp Verlag, 2009.

Hontondji, Pauline. "Construire l'universel: un défi transculturel." *Method(e)s: African Review of Social Sciences Methodology*. vol. 2, no. 1-2: Epistemological Fractures in a Globalized World: Normalizations, Debates and Alternatives in the Social Sciences (2017).